الحملات الصليبية

إعـــداد

د. محمد بن عبد الرحمن العريفي

الحملات الصليبية على خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم

ورقة مقدمة لمؤتمر الرابطة

مكة – ذو الحجة ١٤٢٧هـ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ..

تمهيد : النبي صلى الله عليه وسلم في الفكر الغربي :

شهدت الفترة الماضية ارتفاع نبرة المواجهة مرة أخرى بين العالم الإسلامي من ناحية، وبين أوروبا وأمريكا من ناحية أخرى؛ فيما يتعلق بالهجوم على شخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

ورغم أن هذا الهجوم تكرر كثيراً خلال الأعوام الماضية وبصور متعددة، إلا إن العالم العربي والإسلامي لا يزال مصراً على التعامل مع كل حالة من تلك الحالات التي يهاجم فيها خير البشر، وكأنها حالة منعزلة وفردية، ويجب أن تعامل في هذا السياق.

يغيب عن الكثير من أبناء الأمة أن الموقف الفكري الغربي من النبي صلوات ربي وسلامه عليه كان دائماً موقفاً عدائياً، وإن اختلفت صور التعبير عن هذا العداء.

إن من يهاجمون النبي صلى الله عليه وسلم لا يجهلون من هو، بل يعرفونه حق المعرفة. ألم يخبرنا الحق سبحانه وتعالى أنهم يعرفونه كما يعرفون أولادهم.. ألا تقرأ في القرآن .. (**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**) (البقرة:١٤٦) ، وهي تدل بوضوح على أن علماء وقادة أهل الكتاب يعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهي معرفة حقيقية ومستمرة كما تدل الآية الكريمة.

أخبرنا سبحانه وتعالى كذلك أن هذه المعرفة جاءت من كتبهم وليس فقط من اطلاعهم على أحداث العالم أو اهتمامهم بالإسلام، فقد قال تعـالى : (**الَّـذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْـدَهُمْ فِـي التَّـوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ**)(لأعراف: من الآية١٥٧) ولاشك أنهم يعرفون النبي وهم يهاجمونه.

فليس من المتوقع أن البابا مثلاً لا يعرف من هو محمد صلى الله عليه وسلم :

إننا نفترض أنه إن كان البابا بينديكبت السادس عشر الذي هاجم نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم مؤخراً في شهر سبتمبر من عـام ٢٠٠٦م مطلعـاً علـى الإنجيل، ومهتماً بالحوار بين الثقافات والأديان، ومعاصراً لزماننا.. وهو بلا شك كل ذلك، فهو يعرف محمداً صلى الله عليه وسلم حق المعرفة، ولا يعذر بجهل أو بخطأ، ومثله الكثير ممن هجموا على نبينا طوال الأعوام الماضية.

(وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين) التاريخ القديم للحملات الصليبية عليه -صلى الله عليه وسلم- :

يكاد الغرب فكرياً أن يجمع على موقف موحَّد من نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم ، وهو موقف ليس إيجابياً بل هو موقف معاد إجمالاً ، ولا يمكن تفسيره إلا من خلال تجديد النظرة وطرق البحث عن أسباب ذلك العداء المرضي غير المبرر.

إن استقراء ومتابعة التاريخ يؤكد وجود تراث يقارب ألف عام من العداء بين الغرب (ونعني به هنا الكنيسة الأوروبية الغربية وصناع القرار وكذلك التيـارات الكفرية غير الدينية) وبين الإسلام والمسلمين، وضد نبي الله صلى الله عليه وسلم.

و لم يحدث في تاريخ البشرية، وفي الغرب تحديداً، أن استمر العـداء تجـاه أي شخص بمثل هذه الحماسة والاستمرار المتجدد، والصور المختلفة الملفتة للنظر.

لماذا يتحاملون على محمد صلى الله عليه وسلم إلى هذه الدرجة ؟

سؤال يشغل أذهان الكثيرين من أبناء الأمة، وهم يستمعون مـؤخراً إلى بابـا الكنيسة الكاثوليكية وهو يجدد الهجوم على شخص النبي صلى الله عليه وسـلم ،

مستهلاً بذلك فترة رئاسته لكرسي البابوية، ومحدداً من خلال كلماته النهج الذي يمكن أن نتوقعه من هذا الرجل خلال الأعوام المقبلة فيما يتعلق بعلاقة الكنيسة الكاثوليكية مع العام الإسلامي، والشعوب المسلمة.

- لقد أخبر الله تعالى في كتابه العزيز أن سنته الماضية أن يخرج لكل نبي عدواً من المجرمين ، يقاوم دعوة ذلك النبي، ويحاربها. قال تعالى : (**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً**)(الفرقان:٣١) (**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْأِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**) (الأنعام:١١٢) .
- وقد حدث هذا مع كل الأنبياء الذين أطلعنا الله تبارك وتعالى على سيرهم وما تعرضوا له من ابتلاءات، وكذلك كان الأمر في حياة نبي الأمة صلوات الله وسلامه عليه.
- وبما أن دعوة المصطفى صلى الله عليه وسلم باقية ما بقي الليل والنهار، ومتجددة مع كل إشراقة شمس، فليس من الغريب أن يكون عدو هذا النبي الكريم ممداً أيضاً ومستمراً . ومن يتابع تاريخ الإسلام وعلاقات الأمة الإسلامية الدولية يلحظ أن عداء الكنيسة الأوروبية للنبي صلى الله عليه وسلم استمر منذ بداية الدعوة، وحتى أيامنا هذه.

الغريب أن هذا العداء متجدد ويزداد كراهية وعنصرية حتى مع اهتمام المسلمين بالحوار والتعايش مع الآخرين. فهل من الممكن أن يكون السياق القرآني الوارد في الآية الكريمة (**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً**) (الفرقان:٣١) . منطبقاً على تلك الكنيسة وعلى الغرب بوجه عام بصفته العدو المستمر لهذا الدين المستمر أيضاً.!

إن كان لهذه الأمة ولنبيها عدوٌ من المجرمين -كما أخبرت الآية- في زماننا هذا، فمن يمكن أن يكون هذا العدو غير الغرب؟

لا أقصد هنا بالضرورة شعوب الغرب، ولكنني أقصد تحديداً طائفة صناع القرار، والكثير من القيادات الدينية المتطرفة في الغرب، والعديد من وسائل الإعلام غير الموضوعية وغير المحايدة.

فعلى المستوى الديني، لم يبلغ الفكر المتزمت في أي دين من الأديان إطلاقاً درجة التنظيم والاضطهاد التي عرفتها محاكم التفتيش الأوروبية الكنيسة في مواجهة الإسلام. وقد ظهر هذا التزمت نفسه من خلال الإصرار على معاداة نبي الله بكل الصور الفكرية والثقافية الممكنة. إن اللوحات التي تزين الأديرة والكنائس الأوروبية القديمة التي تصور العداء لنبي الإسلام، إنما تعكس امتداد هذا التزمت والعداء الفكري إلى درجة الاحتفاء به، والتعبير عنه في أكثر الأماكن قداسة في نظر أنصار ذلك الفكر، وهي الأديرة والكنائس. إن طبيعة تجدد العداء من الغرب تجاه نبي الإسلام توحي أن هذا العداء يعبر عن نوع من الإجرام الحقيقي في مواجهة أمة الإسلام.

وإلا فكيف يمكن تفسير أن تزين بعض كنائس أوروبا بلوحات ورسومات لنبينا محمد وهو -كما يدّعون- يُعذب في نار جهنم، وأن تبقى هذه اللوحات في أماكنها في أكثر من كنيسة خاضعة لسلطة الفاتيكان، ولم تلمسيها بد، ولم يحاول تغيير ذلك أحد من دعاة التسامح والحوار طوال عشرات السنين، وحتى الآن؟

كيف يُفسر أن يوضع في كنيسة أوروبية في عاصمة الاتحاد الأوروبي تمثالٌ مهين لنبي الأمة وهو مطروح أرضاً تدوسه أقدام ملائكة تعلن انتصار المسيحية على الإسلام؟

وكيف إذا كان هذا التمثال ليس في الكنيسة فقط بل هو في محرابها؟ أي أنه يراه ويشاهده كل من يزور الكنيسة للعبادة أو السياحة أو غيرهما. ألا يدل هذا على الإجرام الذي وصفته الآية في الحديث عمن يعادون نبي الأمة؟

إن نوع الاتهامات والإهانات المتكررة والتي تُلصق بنبي الله محمد صلى الله عليه وسلم من قبل الحمقى من الغرب لا تدل إلا على صفة واحدة في هؤلاء.. وهي الصفة التي وصفهم بها رب العزة والجلال؛ إنها صفة الإجرام، ومن المهم أن نسمي الأشياء بمسمياتها الصحيحة والحقيقية لننجح في الحوار والتعايش مع الآخرين.

الصورة الذهنية عن الإسلام ونبيه :

تكونت الصورة النمطية عن نبي الإسلام من خلال الموقف الأوروبي التاريخي من الإسلام. إنها حصيلة الصور الذهنية التي ارتسمت في مخيلة مجتمعات أوروبا في ذلك الوقت عن الدين الجديد الذي يغزو العالم، ويعيد صياغة العلاقات ليس فقط بين المجتمعات، بل وبين البشر، وكذلك علاقة البشر بالخالق.

لقد استمر بناء هذه الصورة النمطية الكريهة عن الإسلام طوال الألف عام الماضية بشكل دؤوب ومستمر لم ينقطع إلا في فترات محدودة للغاية، ولم تخالفه أو تعترض عليه إلا دوائر ثقافية وفكرية صغيرة وغير مؤثرة في الموقف الفكري الأوروبي.

لذلك يمكن القول : إن التصورات الغربية المعاصرة حول دين المسلمين، لم تتكون وترتسم في صفحة بيضاء خالية، وإنما انعكست في مرآة قديمة مشوهة؛ إذ إن سكان أوروبا المعاصرة ورثوا عن أسلافهم من القرون الوسطى مجموعة عريضة وراسخة من الأفكار حول الإسلام، التي كانت تتغير تدريجياً مظاهرها الخارجية فقط، تبعاً لتغير الظروف في أوروبا ذاتها، وتبعاً لطبيعة علاقاتها ومواقفها المستجدة نسبياً مع البلدان الإسلامية وثقافتها الحديثة.

بشكل عام ، تكونت في وعي الأوروبيين "في القرون الوسطى" ملامح اللوحة التالية عن الإسلام :

إنه عقيدة ابتدعها محمد،

وهي تتسم بالكذب والتشويه المتعمد للحقائق،

إنها دين الجبر،

والانحلال الأخلاقي، والتساهل مع الملذات والشهوات الحسية،

إنها ديانة العنف والفسوق.

وانسجاماً مع هذا الموقف المعادي، فقد رسم الإسلام على هيئة نموذج قبيح سيئ، يتعارض ويتناقض كلية مع النموذج المثالي للمسيحية بوصفها ديانة ـــ ، التي تتميز بالأخلاق الصارمة وروح السلام، وبأنها عقيدة تنتشر بالإقناع وليس بقوة السلاح.

الصورة النمطية عن نبي الإسلام :

أما الصورة النمطية عن نبي الإسلام فقد تكوّنت طوال أكثر من ألف عام، وتشكل معظمها من خرافات وأكاذيب لا تمت للحقيقة بصلة، ولكنها تراكمت تاريخياً لتكون صورة قاتمة وظالمة عن خير خلق الله صلى الله عليه وسلم .

انتشرت منذ ذلك الوقت القصص الأسطورية المختلقة التي تتعمد إهانة النبي صلى الله عليه وسلم أو التشكيك في نبوته أو دعوته، أو استحقاقه للاحترام والتقدير.

وقد نشرت على نطاق واسع في أوروبا الحكاية الأسطورية القائلة إن محمداً قد درّب الحمامة لتنقر حبوب القمح من أذنه !! وبذلك أقنع العرب، أن تلك الحمامة هي رسول الروح القدس، الذي كان يبلغه الوحي الإلهي.!!

وعممت هذه الحكاية المختلفة إلى درجة أن الشاعر الإنجليزي جون ليدهيت -وهو من شعراء القرن الخامس عشر- عندما وضع سيرة لحياة محمد صلى الله

عليه وسلم في لون تلك الحمامة "حليباً – أبيض". كما ردد هذه القصة المضحكة مؤرخون أوروبيون..!

بل إننا نقرأ عن شكسبير ذاته في "هندي الرابع، الفصل الأول، المشهد الثاني" كيف أن الملك كارل الثاني يتوجه إلى جان دارك صارخاً : "ألم تُلهم الحمامة محمداً؟ ... أما أنت فإن النسر، ربما ألهمك!".

من يهاجم نبي الأمة ؟ :

هناك أربع فئات رئيسة في العالم الغربي تهاجم نبي الإسلام بشكل متواصل ومنظم طوال الأعوام الأخيرة. إنهم :

- رموز عدد من الكنائس الأوروبية والأمريكية الكبرى.
- والقادة السياسيون في الكثير من دول أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية.
- والعديد من وسائل الإعلام الغربية (صحافة – سينما – كتب – إعلام إلكتروني – إلخ).
- وأخيراً الرموز الفكرية للتيارات العلمانية.

مظاهر العداء الديني :

إن من العجيب في الكنائس الأوروبية والأمريكية أن نجد هذا الهوس والولع التاريخي والمتجدد بالهجوم على نبي الإسلام إلى درجة أن تجد في العديد من الكنائس الأوروبية المعروفة رسومات ولوحات على أسقف هذه الكنائس، وتماثيل في أفنيتها تهزأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تصوره وكأنه يعذب في نار جهنم، أو ما شابه ذلك.

من الأمثلة المخزية في هذا الشأن :

لوحة توجد بكنيسة سان بيترونيو بمدينة بولونيا في وسط إيطاليا San Petronio basilica in Bologna ، وهي عبارة عن رسم لشخص عارٍ ممدد أرضاً وهو يعذب في جهنم بشكل بشع، وقد كُتب على جانبها

بحروف واضحة اسم النبي صلوات الله وسلامه عليه. الرسم يرجع إلى عام ١٤١٥م، وقام به رسام معروف في ذلك الوقت، وهو جيوفاني دو مودينا.

من الأمثلة الأخرى على هذا الشأن تمثال يوجد في محراب أحد الكنائس المهمة، وهي كنيسة "سيدتنا العزيزة" Church of Our Dear Lady في مدينة ديندرموند، في بلجيكا. التمثال منحوت من الخشب في القرن السابع عشر بواسطة النحات الأوروبي ماثيويس فان بيفرن، ويظهر في أسفله صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ملقى على الأرض على وجهه وهو يحتضن القرآن، وتدوسه أقدام ملائكة يعبرون عن هزيمة وانكسار النبي وعن انتصار المسيحية على الإسلام.

وبهذا يتبين أن العداء من النصارى للنبي محمد صلى الله عليه وسلم هو عداء ديني، وإن تعددت الاعتذارات والأسباب.

كتبه/

د. محمد بن عبد الرحمن العريفي

أستاذ جامعي

دكتوراه في العقيدة والمذاهب المعاصرة

الرياض ١٤٢٧/١٠/٢٠هـ

- (ملحوظة / استفدت في إعداد هذه الورقة من كتاب (لماذا يكرهونه؟) د. باسم خفاجي).